نظرة عجلى
لرسالة الجامعة

للأستاذ أمين الخولي

واتاح اليوم السابع والعشرون من شهر ديسمبر ١٩٥٠ عيد ميلاد جامعة فؤاد الأول الخامس والعشرين فكان عيداً حقاً يتيه بجماله وجلاله على سائر الأعياد ، شرف حفله مولانا حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول — حفظه الله — وفي صحبته رجال العلم والأدب والدين من مصريين وأجانب وممثلي الجامعات الأجنبية الذين حضروا خصيصاً لهذه المناسبة السعيدة ، بدعوة خاصة من حضرة صاحب المعالي الدكتور طه حسين باشا وزير المعارف العمومية والرئيس الأعلى للجامعة .

بدأ الاحتفال في العاشرة صباحاً بقاعة الاحتفالات الكبرى بالجامعة بكلمة خالدة لمعالي الدكتور طه حسين باشا ألقاها بين يدي جلالة الفاروق المحبوب ، وأقول إنها خالدة لما تضمنته من سرد تاريخ إنشاء الجامعة والمراحل التي مرت بها والذين عملوا على تدعيم بنائها منذ أن أسسها المغفور له الملك فؤاد الأول ١٩٠٦ ، وتعهدها بالرياسة والرعاية إلى أن صارت حكومية سنة ١٩٢٥ . وبعد أن أشار معاليه إلى أنه أول ثمرة من ثمرات جامعة فؤاد الأول نوّه بفضل جلالة الفاروق في إنشاء جامعة بالاسكندرية تحمل اسمه المكرم ، ثم جامعة محمد علي في أسيوط ، ثم جامعة ابراهيم بالقاهرة . وفي تشجيع جلالته للنابهين والمتفوقين طلبة وأساتذة .

وتلا معالي الوزير حضرة صاحب السعادة الدكتور محمد كامل مرسي باشا مدير الجامعة بكلمة جامعة أشاد فيها بأثر الجامعة في الجهود الثقافية والاتصالات الفكرية بين مصر

وسائر الدول الأخرى. ثم تبع هذه تزويد البعثات بالدرجات العلمية من دكتوراه وماجستير من الجامعات الأجنبية.

* * *

ولما أخذت الحكومة المصرية في الاستعداد لتنفيذ ما قرر من الإسراع في تأسيس الجامعة تتبع المقتطف هذه المسألة بما يظهر من الدقة ونظرة تقدمية إلى أهداف الجامعة الراسخة في الأذهان من التجارب الثمينة العديدة التي تبلورت فيها الدراسات الاجتماعية والابتكارات العلمية والنظريات الخاصة في أساليب السياسة والحكم والاقتصاد والمشاكل الدولية الحالية. ولا شك أننا نفتخر كل الفخر من أجل ما حققته الجامعة في خلال ربع قرن من آثار فكرية وما خلفته ولا تزال تخلفه بهذه الآثار من صفوة ممتازة في تفكيرها وناشئة في مستقرأها وما تعكسه من نهضة تشمل جميع مناحي حياتنا. وإذا كنا قد بدأنا نستعد سلم الرقي ونمضي قدمًا في طريق التطور الثقافي، فيجمل بنا أن نستمر في نفس الطريق في سبيل تحقيق الرسالة الجامعية في خير الوجوه.

عالم القيم

ذلك أن أهم وظيفة جامعية، تسبق الوظائف الأخرى، هي تعديل القيم الاجتماعية، وتنظيم نمو السلوك الأخلاقي. فالناشئة تمتص أساليب سلوكها وقيم أخلاقها من البيئات المحيطة بها. كما تراسم أهدافها وتختبر آراءها من المؤسسات الاجتماعية المتباينة من قيم وما تزاوله من أنشطة، وما تسيره من معتقدات. فالجهالة تهرها القيم النظرية الكاذبة التي تنشئ على إشباع الغرائز والأهواء بمجرده بمجرد الأنانية الضيقة والأثرة المستبدة، كالعصبية الأسرية والتفاخر العنصري والنعرات الشعبية التي تقر أساليب الاستغلال الاقتصادي والوصولية وما إليها. أما المعرفة فتجتلي القيم الجوهرية المبنية على رتبته السامي الفكري، وإذكاء دوافع النشاط لتصبح عاطفة إنسانية تشمل مشاعر الأخوة والتعاون والاستقلال، وتقويم أخطاء الضلالة وتصحيح الرغبات وقيم الآثار الخالدة للعبقرية، والفن والإبداع.

وإن مسألة القيم في نظرية التعليم وتوجيه الأفراد والجماعات من صعوده في

مناهل الحياة وشروطها في معنوياتها ، تقف الجامعة كمؤسسة علمية اجتماعية كبرى ترسي قواعد التفكير في مادئات الأخلاق على أسس الحرية والاستقلال المدعمين بالبحث ، والنقد والتجريب ، لا على أسس الخوف والخنوع والتقليد ، لأن التكامل الخلقي الحر هو ثمرة التفاعل الموضوعي للعلاقات والمبتكرات في ميادين النشاط المختلفة .

ومن هنا يقتضي أن تدعم فكرة استقلال الجامعة الداخلي ، وأن تدعو إلى النهضات العلمية التي تساهم في تبسيط العلوم ونشر الآراء التي يدور حولها رقي الشعب وتطوره .

الجامعة منبع التطور

وإن أهم ما يجب أن تعنى به الجامعة — وهيهات هو السعي الصادق الحر الجريء — أن تجعل التفكير منصباً على خلق « العقلية العلمية » أو « طريقة التفكير الصحيح » فالدراسة الجامعية منهج البحث قبل أن تكون برنامجاً ، وطريقة للتفكير قبل أن تكون حشواً تلقينياً . إن أخطاءنا الكبرى في معاهدنا تنحصر في اهتمامنا بالكم لا الكيف ، ولعل يقظة الوعي اليوم قد ميزت لنا بين المعرفة التي لا تنفع لها ، والمعرفة التي يقوم نفعها على تأثيرها في النفس والعقل معاً ، وهي المعرفة التي لا تستند على التلقين وحفظ الذاكرة بقدر ما تعتمد على أسس التفكير الصحيح من التعمق في المشاهدة والتجريب والبحث والاستنتاج المنزه عن الغرض والبعيد عن التحزب والهوى . ومن هذه الوحدة العقلية في التفكير تستطيع الجامعة أن تخلق أهلاً للرأي ، وتقارباً للفهم ، وشغفاً بالعلم ، وتعاوناً في العمل . إن « العقلية العلمية » هي نقطة التحول والتطور التي تبدأ منها الجامعات والأفراد لتبرز من سباتها ، وتستحث خطاها ، وتتابع نهضاتها الحيوية .

العلم للعلم

إن الفكرة الجامعية قد أشاعت في الكثيرين روحاً وثابة للعلم وطلب العلاء ونيل أكبر قسط ممكن من الثقافة ابتغاء لتفهم واقع الحياة وحملت من هذا الشغف ما يرفع نفوسهم فوق أغراض المادة ، وما يحلق بأرواحهم فوق المغامرات الرتيبة ، وينقلهم إلى مغامرات أمتع وأروع وأسمى ، فيما يتفاعل العلم مع تراث الحضارة الانسانية ، وتتدمج العاطفة بالتأمل

المشجع في آداب الإعلام وفلسفات القيادة من كل جيل . فإنك لتجد أساتذة أجلاء قد جاوزوا الأربعين وقد التحقوا بالجامعات في الدراسات العليا ، لا لشيء مادي يبتغون ، وإنما التماس من منابع الحكمة ويترفوا من معين المعرفة وكأنهم في صحرائها رهبان يصلون أو تلاميذ يتعلمون . ومن هنا ينبغي أن تفتح الجامعات أبوابها للجميع ، ليستمع إلى تجاربهم الثرية المشحونة المتيم بالعلم لغير ضرورة لأن تمنحه إجازتها الجامعية ، وبهذا تجتذب إليها أنبه الناشئة والملكات المطمورة ، وتثير تفاعل المواهب الراكدة للانتاج والابتكار .

العلاقة بين الأستاذ والطالب

وذلك مما نعجب فيه من نقدات وما نصادفه من عثرات بصدد الدراسة الجامعية . فإننا إذ نتفكر أن الجامعة قد خرجت صدداً من الشباب الحرّ المفكر الذي يفتخر بتلامذته على أساتذة أجيال من أمثال لطفي السيد وطه حسين وعلي ابراهيم ومصطفى مشرفه وأمثال هؤلاء الأعلام الأفذاذ الذين كانت شخصياتهم الجامعية تحيا في أفكارهم السامية وفي مواقفهم الرائعة ، وفي مثلهم العليا ، قبلما كانت تبرز في علمهم أو فنهم ، نقول إن أهم صورة للتأثير الجامعي إنما تتمثل في العلاقة بين الأستاذ والطالب ، لأنها علاقة حب وعلم واقتداء ، علاقة فكرة ورأي وروح . وطالب اليوم يعوزه الأب الروحي ويفتقد المرشد الأمين . وشباب اليوم يعيش في فوضى من الفكر ومن التيارات المتنازعة ، والعوامل المتضاربة الهادمة ، وهو يرنو ببصره إلى رجال أمين يقود سفينة حياته وسط الأنواء والعواصف . فمن أحق من الأستاذ الجامعي بهذه القيادة التعليمية والروحية ، ومن أجدر من المرشد الجامعي بتدعيم هذه العلاقة السامية ؟

في يقيني إن تأدية هذه الأمانة ، بإخلاص وحب ، كفيل أن يوجه الشباب وجهات صحيحة ويجرد الكفايات شتى خير الوطن ونهضته . ومن أجل ذلك وجب أن تعيد الجامعة نظرتها في تدعيم نظام الأساتذة المشرفين ، كما تأخذ به كثير من الجامعات الأوروبية والأمريكية ، وأن تعمل على تكوين تقاليد عريقة ثابتة تمكّن الطلاب من توكيد صلاتهم بأساتذتهم حتى بعد التخرج .